الهوى
وأثره في الخلاف

لفضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد الغنيمان
أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

مصدر هذه المادة :





دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، يقول – تعالى – في محكم تنزيله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ١٠٢].

ويقول – جل ثناؤه -: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾** [النساء: ١].

وقال عز وجل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾** [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد:

نتقدم للقراء الكرام بهذه النصيحة القيِّمة المباركة، من فضيلة شيخنا وأستاذنا الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – على ساكنها صلوات ربي وتسليمه -، في موضع يشغل بال كل مسلم، وكل طالب علم على الخصوص، ألا وهو موضوع الأهواء والمنازعات والخلافات التي

تحدث بين آونة وأخرى بين فئات من المسلمين، وما ينتج عن هذه الخلافات من العدوان والظلم والتجني من بعض من ينتسبون للعلم.

وكان هذا الموضوع في أصله عبارة عن محاضرة ألقاها فضيلة الشيخ عبد الله الغنيمان، بعنوان: «الهوى وأثره في الخلاف».

وقد عالج فضيلته هذه المسائل وجزئياتها بأسلوب علمي منهجي رصين، جمع بين الأصالة في حشد النصوص والآثار، وبين الرصانة والموضوعية في عرض المسائل، بأسلوب واضح، وسياق سلس، وبروح العالم الناصح المشفق، مقتفيًا نهج السلف الصالح، في العرض والاستدلال والمناقشة، بعيدًا عن التكلف والتعمق والتميع الذي وقع فيه كثير من الكتاب الإسلاميين المحدثين.

وأنصح كل طالب علم ومن تصدى للدعوة بصفة خاصة أن يقرأ هذا الكتاب بتمعن وروية، فسيجد فيه بغيته إن شاء الله.

وفق الله الجميع للسداد والرشاد، وجزى الله شيخنا خير الجزاء، وأحسن له في الدنيا والآخرة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا محمد، وآله وصحبه وسلم.

وكتبه

ناصر بن عبد الكريم العقيل

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وآله وصحبه أجمعين.

إن من أعظم دواعي الضلال وأسباب الهلاك اتباع الهوى، فإنه يهوي بصاحبه إلى المهالك حتى يورده النار.

قال الشاطبي: «سُمِّي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه إلى النار»(١). وروي هذا عن الشعبي (٢).

وقال ابن عباس: «ما ذكر الله عز وجل الهوى في كتابه إلا ذمه»(٣)!! فيجب تقديم الكتاب والسنة على الرأي، وتقديم الشرع على الهوى.

والأصل الذي افترق فيه المؤمنون بالرسل والمخالفون لهم هو تقديم نصوص الأنبياء على الآراء وشرعهم على الأهواء، وأصل الشر كله من تقديم الرأي على النص، والهوى على الشرع. فمن أراد الله به خيرًا فنوَّر قلبه فرأى ما في النص والشرع من الصلاح والخير، فاغتبط بذلك وسلم وانقاد، فهذا فضل الله ومنته، وهو الذي يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

وإن لم يصل المرء إلى ذلك فيجب عليه الانقياد والتسليم للنص الذي يأتيه من كتاب الله أو سنة رسوله والشرع، ولا تجوز معارضته برأي أو هوى.

---

(1) انظر: الموافقات، للشاطبي، ج٤.

(2) انظر: سنن الدارمي في المقدمة، باب اجتناب أهل الأهواء؛ واللالكائي، رقم (٢٢٩).

(3) ذكره الشاطبي في الموافقات ٤/١١٥.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي برزة الأسلمي، عن النبي ﷺ قال: «**إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء**».

وروى الترمذي عن نعيم بن همار الغطفاني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بئس العبد عبد هوى يضله، بئس العبد عبد رغب بذله**».

وروى في المختارة عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

وروى أهل السنن أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الدعوات: «**اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء**».

وروى ابن أبي عاصم في السنة عن معاوية رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا فذكر «**أن أهل الكتاب قبلكم تفرقوا على** [اثنتين] **وسبعين فرقة في الأهواء، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة في الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، ألا وإنه يخرج في أمتي قوم يهوون هوى يتجارى بهم ذلك الهوى، كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يدع منه عرقًا ولا مفصلاً إلا دخله**».

«وأصل الضلال: اتباع الظن والهوى، كما قال – تعالى – فيمن ذمهم: **﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]**»[1].

وهذا وصف للكفار، فكل من له نصيب من هذا الوصف فله نصيب من متابعة الكفار بقدر ذلك النصيب.

---

(1) ينظر: مختصر منهاج السنة ٢/٨٨٥.

وقال – تعالى – في حق نبيه ﷺ: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾** [النجم: ١-٤].

فنزهه عن الضلال والغواية، اللذين هما: الجهل والظلم، فالضال هو الذي لا يعلم الحق، والغاوي الذي يتبع هواه.

وأخبر أنه لا ينطق عن هوى النفس، بل هو وحي أوحاه الله إليه. فوصفه بالعلم ونزهه عن الهوى[١].

ومتبع الهوى لا بد أن يضل، سواء عن علم أو عن جهل، فإنه كثيرًا ما يترك العلم اتباعًا لهواه، ولا بد أن يظلم إما بالقول أو بالفعل؛ لأن هواه قد أعماه

ولهذا حذر السلف عن مجالسة من هذه صفته، كما قال أبو قلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما تعرفون»[٢].

وقال – أيضًا -: «لا تُجالسوا أهل الأهواء، فإنكم إن لم تدخلوا فيما دخلوا فيه لبسوا عليكم ما تعرفون»[٣]. يعني: أن مُجالس صاحب الهوى لا يسلم من الشر. فإما أن يتابع صاحب الهوى على هواه وباطله، أو يدخل عليه شبهة في دينه الذي يعرف أنه حق.

---

(1) انظر: فتاوى ابن تيمية ٣/٣٨٤.

(2) رواه ابن بطة في الإبانة، رقم (٣٦٣)؛ واللالكائي، رقم (٢٤٤)؛ والدارمي ١/١٠٨.

(3) رواه ابن بطة في الإبانة، رقم (٣٦٧).

وقال ابن عباس: «لا تجالس أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلوب »[١].

وقال إبراهيم النخعي: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغضة في قلوب المؤمنين»[٢].

وقال مجاهد: «لا تجالسوا أهل الأهواء، فإن لهم عرة كعرة الجرب»[٣].

يعني: أنهم يعدون من قرب منهم، كما أن من قارب الأجرب جرب، فالعرة: الإثم والشر.

وقال محمد بن علي: «لا تجالسوا أصحاب الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله»[٤]. يقصد قوله – تعالى -: **﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].**

وقال مصعب بن سعد: «لا تجالس مفتونًا، فإنه لن يخطئك منه إحدى اثنتين: إما أن يفتنك فتتابعه! وإما أن يؤذيك قبل أن تفارقه»!![٥].

---

(1) رواه ابن بطة، رقم (٣٧١).
(2) ابن بطة، رقم (٣٧٥).
(3) ابن بطة، رقم (٣٨٢).
(4) ابن بطة، رقم (٣٨٣)؛ والدارمي في السنن ١/١١٠؛ واللالكائي، رقم (٢٣٣).
(5) رواه ابن بطة، رقم (٣٨٥).

وقال يونس بن عبيد: «أوصيكم بثلاث... لا تمكنن سمعك من صاحب هوى، ولا تخل بامرأة ليست لك بمحرم ولو أن تقرأ عليها القرآن، ولا تدخلن على أمير ولو أن تعظه»(١).

وقال أبو قلابة يوصي أيوب السختياني: «يا أيوب احفظ عني أربعًا: لا تقل في القرآن برأيك، وإياك والقدر، وإذا ذكر أصحاب محمد ﷺ فأمسك، ولا تمكن أصحاب الأهواء من سمعك فينبذوا فيه ما شاؤوا»(٢).

وقال أبو الجوزاء: «لئن تُجاورني القردة والخنازير في دار أحب إلي من أن يجاورني رجل من أهل الأهواء». وقد دخلوا في هذه الآية: **﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩]**(٣).

وقد دل على هذا حديث رسول الله ﷺ في الدجال، فإنه قال: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات»(٤).

والمتعين على العبد – ولا سيما المبتدئ والشاب – أن يبتعد عن الشبه والجدال في الدين، فإن ذلك يجر إلى الردى.

---

(1) رواه ابن بطة، رقم (٣٨٧).
(2) رواه ابن بطة، رقم (٣٩٧)؛ واللالكائي، رقم (٢٤٦).
(3) رواه ابن بطة، رقم (٤٦٦)؛ واللالكائي، رقم (٢٣١).
(4) رواه داود، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال؛ ورواه أحمد ٤/٤٤١، وصححه الألباني.

قال ابن بطة: قال رسول الله ﷺ: «**من سمع منكم بخروج الدجال فلينأ عنه ما استطاع، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فما يزال به حتى يتبعه لما يرى من الشبهات**».

قال: هذا قول الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق، فلا يحملنَّ أحدًا منكم حسن ظنه بنفسه وما عهده من معرفته بصحة مذهبه على المخاطرة بدينه في مجالسة بعض أهل هذه الأهواء، فيقول: أداخله لأناظره أو لأستخرج منه مذهبه، فإنهم أشد فتنة من الدجال، وكلامهم ألصق من الجرب، وأحرق للقلوب من اللهب، ولقد رأيت جماعة من الناس كانوا يلعنونهم ويسبونهم فجالسوهم على سبيل الإنكار والرد عليهم فما زالت بهم المباسطة وخفي المكر ودقيق الكفر حتى صبوا إليهم.

وذكر أن محمد بن السائب كان من أهل السنة، فقال: نذهب نسمع من هؤلاء فما رجع حتى أخذ بها وعلقت في قلبه. اهـ [١]. ومثله كثير.

* **والهوى**: كل ما خالف الحق، وللنفس فيه حظ ورغبة من الأقوال والأفعال والمقاصد، فالهوى ميل النفس إلى الشهوة، ثم يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية؛ وفي الآخرة إلى الهاوية!!.

فميل النفس إلى الثناء ومدح الناس وتعظيمهم إياه وطلب الرفعة عليه في رئاسة أو صفة هو الهوى.

(1) في الإبانة، رقم (٤٧٥) في باب التحذير من صحبة قوم يمرضون القلوب ويفسدون الإيمان.

وقد ذم الله اليهود لاتباعهم لأهوائهم، حيث قادهم ذلك إلى تبديل شرع الله والكفر بالرسول ﷺ وما جاء به من الوحي. وسبب ذلك اتباعهم لأهوائهم، قال – تعالى -: **﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾** [البقرة: ٨٧].

وقال – تعالى -: **﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾** [المائدة: ٧٠].

فاتباع الهوى هو أصل الضلال والكفر، ومعلوم أن ذلك يتفاوت تفاوتًا عظيمًا، فمن اتباع الهوى ما يوصل إلى ما ذكر، ومنه ما هو أقل من ذلك، وكل من خالف الحق لا يخرج عن اتباعه للهوى أو الاعتماد على الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، كما قال –تعالى-: **﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ﴾** **[النجم: ٢٣]**. فإن كان يعتقد أن قوله صحيحًا وله فيه حجة يتمسك بها فغايته اتباع الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، وتكون حجته شبهات فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ومعان متشابهة لم يميز بين حقها وباطلها، فإذا ميز الحق فيها عن الباطل زال الاشتباه.

ومما يجب أن يعلم أن الله – تعالى – لم يقص علينا في القرآن الكريم قصص السابقين إلا لنعتبر بها لما فينا من الحاجة إلى ذلك، ولما فيه من المصلحة، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا ما يقع لنا وما يكون فينا على ما وقع من السابقين وما حصل لهم من جراء ذلك.

ولولا أن في نفوس كثير من الناس أو أكثرهم ما كان في نفوس المكذبين للرسل لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه بقول أو فعل أو سجية كامنة في النفس تنتظر الخروج، ولكن الواقع مثل ما قال الله – تعالى -: ﴿**كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [البقرة: ١١٨]. وقوله – تعالى -: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾ [الذاريات: ٥٢]. وقال – تعالى -: ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ [فصلت: ٤٣]. وقوله – تعالى -: ﴿**يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ**﴾ [التوبة: ٣٠]؛ أي قولهم يماثل قول من سبقهم بالكفر ويشابهه.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**»(١). والقذة: ريشة السهم، وهي ما يشبه رصاصة البندقية (اليوم)، فكل واحدة تكون مساوية للأخرى، فالمعني أنكم تكونون مثلهم بأفعالهم سواءً بسواء.

وفي الحديث الآخر: «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أُمتي بأخذ القرون قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**» فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال: «**ومن الناس إلا أولئك**»(٢). بمعنى الأول تمامًا.

---

(1) رواه البخاري ومسلم، دون لفظ: «حذو القذة بالقذة». فقد رواه أحمد في المسند ١٢٥/٤.

(2) رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم».

وكثير من الناس يدعو إلى أن يكون شريكًا لله – تعالى – في طاعة الأمر واتباعه، بل والتعظيم! وإن كان لا يستطيع أن يصرح بذلك، ولكن هذا كامن في نفسه، وهذا غاية الظلم والجهل، وكل نفس – إلا ما شاء الله – فيها على الأقل شعبة من ذلك، إن لم يعن الله العبد ويهديه، وإلا ظهر ذلك من نفسه ووقع فيما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب قدرته وسلطانه.

قال بعض السلف: ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون، غير أن فرعون قدر فأظهر وغيره عجز فأضمر [١].

والعاقل إذا تعرف على أحوال النفس، ونظر في أخبار الناس، وجد أن كل واحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب حاله وقدرته، فالنفوس مشحونة بحب العلو والرئاسة بحسب إمكانها. فتجد أحدهم يُوالي من يوافقه على هواه، ويعادي من يخالفه في هواه!! فمعبوده ما يريده ويهواه، كما قال – تعالى -: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾** [الفرقان: ٤٣]. فمن وافق هواه واستمع لأقواله واتبعه صار صديقًا له مقربًا منه، وإن كان عاصيًا لله – تعالى – بل ربما وإن كان مشركًا كافرًا، ومن لم يوافقه فيما يهواه كان عدوًا وإن كان من أولياء الله المتقين.

والتفاوت في هذا بين الناس كبير، فكثير من المسلمين يطلبون طاعتهم في غيرهم، وإن كان في طاعتهم معصية لله – تعالى -، فمن أطاعهم في ذلك كان أحب إليهم وأعز عندهم ممن أطاع الله ورسوله ﷺ.

---

(1) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ٨/٢١٧، ١٤/٣٢٤.

وكثير من الناس يكون في نفسه حب الرئاسة كامن لا يشعر به، ويخفى عليه، فضلاً عن غيره، وعند المقتضيات تظهر هذه الكوامن؛ ولهذا سميت هذه: الشهوات الخفية.

قال شداد بن أوس: «يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية، قيل لأبي دواد السجستاني: ما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة، فهي خفية تخفى على الناس وقد تخفى على صاحبها»[1].

* ومن علامات ذلك: محبة من يعظمه بقبول قوله أو الاستماع له أكثر من غيره، وإن كان ذلك الغير أطوع لله وأتقى، وهذا يوجد كثيرًا حتى في أهل العلم!! فتجد بعض أهل العلم يحب من يعظمه ويُطيعه دون من يعظم من هو نظيره في العلم أو أفضل منه، وإن كانا على منهج واحد، وإنما تميز بقبول قوله والاقتداء به أكثر من غيره، وإن كان ذلك الغير أكثر طاعة لله، وربما أبغض من يشاركه في العلم والاتباع حسدًا وبغيًا.. كفعل اليهود لما بعث الله محمدًا ﷺ يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى: كفروا به وأبغضوه. قال – تعالى –: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾** [البقرة: ٩١].

ثم قد يحصل ممن هذا وصفه ظلم وعدوان لمن خالفه في هواه، أو ربما لمن قام ببعض ما يجب عليه لله من نشر علم أو دعوة إلى الله – تعالى – فيقف في وجهه صادًا عن الحق أو ملبسًا الحق بالباطل كفعل علماء اليهود، كما قال – تعالى – عنهم: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**

(1) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية ١٦/٣٤٦.

لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. ثم تجده يرمي من خالفه بالألقاب المكروهة المنفرة التي تخالف أمر الله ورسوله ابتغاء التفرقة وابتغاء الفتنة، وهو في ذلك يزعم أنه مُصلح ودافع للفساد، كما قال الله عن فرعون: **﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾** [غافر: ٢٦]. فهو يزعم أنه هو المصلح والمحافظ على الدين الحارس له من التغير والتبديل، وأما موسى فإنه ممن يسعى لتغيير الدين والفساد في الأرض!!.

وهكذا تقلب الحقائق لدى أهل الأهواء ومبتغي العلو في الأرض فيصبح المفسد مُصلحًا والمصلح حقًا لديهم مفسدًا، والكفر بالله ومنازعته سلطانه: دينًا يجب أن يحمى ويصان، ودين الله يعتبر تغييرًا للدين وتبديلاً للحق. فتجد هؤلاء يصنفون الناس حسب أهوائهم. فهذا إخواني، وذلك سلفي، والآخر تبليغي، والثاني سروري أو خونجي!! وهكذا أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وليست في دين المسلمين، بل هي من دين الجاهلية ومدعاة للعصبية والتفرقة!!.

وإن كان اسم «السلفي» قد وردت به الآثار، والمقصود به من اتبع طريقة الصحابة، ومن اقتدى بهم، ومع ذلك فإذا استخدم للتعصب والتحيز إلى فريق معين فإنه يكون ممقوتًا في الشرع.

فقد جاء في السيرة في أحد مغازي النبي ﷺ أنه اقتتل غلامان: غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار. فخرج رسول الله ﷺ

فقال: «**ما هذا دعوى أهل الجاهلية؟! دعوها فإنها منتنة**»[(١)]. مع أن هذين الاسمين [**المهاجرين والأنصار**] جاء بهما القرآن، وهما محبوبان لله ولرسوله ﷺ ولما استخدما نوع من العصبية صار ذلك من فعل الجاهلية، وأخبر الرسول ﷺ أن هذه الدعوى منتنة لأنها تدعو إلى التفرق والتفكك [(٢)].

وقريب من هذا ما حصل لسلمان يوم أحد، لما رمى أحد المشركين، قال: خذها وأنا الفارسي، قال له الرسول ﷺ: «**قل: وأنا الرجل المسلم**»[(٣)].

ومثله ما ذكره شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – قال: «روينا عن معاوية بن أبي سفيان: أنه سأل ابن عباس: أأنت على ملة علي أو على ملة عثمان؟ فقال: لست على ملة علي ولا على ملة عثمان، بل أنا على ملة رسول الله ﷺ[(٤)]، قال: وكذلك كان كل من السلف يقولون: كل هذه الأهواء في النار. ويقول أحدهم: ما أبالي أي النعمتين أعظم: أن هداني الله للإسلام أو جنبني هذه الأهواء»[(٥)].

فلا يجوز التفريق بين الأمة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله، مثل: أن يُقال للرجل: أنت شكيلي أو قرفندي، فإن هذه

---

(1) والحديث رواه مسلم (٢٥٨٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا.

(2) ينظر: زاد المعاد ٢/٤٧١.

(3) ونحوه ما رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في العصبية.

(4) رواه ابن بطة في الإبانة، رقم (٢٣٨)؛ واللالكائي، رقم (١٣٣).

(5) رواه الدارمي ١/٩٢.

أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأمة لا شكيلي ولا قرفندي!! بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ... والله – تعالى – قد سمانا في القرآن المسلمين المؤمنين عباد الله.. فلا نعد عن الأسماء التي سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم وسموهم وآباؤهم.. فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بهذه الأسماء ولا يُوالي عليها ويعادي بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان]. اهـ[(١)].

والواجب على كل من يتكلم في أمر من أمور الدين أن يكون مخلصًا لله متجردًا للحق، وغالبًا على نفسه بالمجاهدة عن اتباع الهوى وما تميل إليه من حظوظها الدنيوية، كحب الثناء والظهور وكثرة الأتباع، أو ما هو أسوأ من هذا كله، وهو الحصول على شيء من حطام الدنيا.

قال ابن القيم في ذكر الألفاظ التي كان النبي ﷺ يكرهها: «ومنها الدعاء بدعوى الجاهلية، والتعزي بعزائهم كالدعاء إلى القبائل والعصبية لها وللأنساب، ومثله التعصب للمذاهب والطرائق والمشايخ وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية، وكونه منتسبًا إليه فيدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي عليه ويزن الناس به، هذا من دعوى الجاهلية»[(٢)].

قال شيخ الإسلام: «وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصًا يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم

---

(1) من مجموع الفتاوى ٣/٤١٥، وينظر ٢٠/١٦٤.

(2) زاد المعاد ٢/٤٧١.

كلامًا يوالي عليه ويعادي غير كلام الله – تعالى – وكلام رسوله ﷺ وما اجتمعت عليه الأمة؛ بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصًا أو كلامًا يفرقون به بين الأمة يوالون على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون»[١].

* ومن نظر في كثير من الخلافات بين الجماعات والأفراد، سواء كان ذلك في مسائل العلم أو في مجال التوجيه والعمل. وجد ظاهرها في طلب العدل والإنصاف، أو الصواب وترك الانحراف، وحقيقتها حب عبادة النفس واتباع الهوى، أو أغراض سيئة دنيئة، وقد علم أن الهوى يعمي ويصم ويضل عن سبيل الله، وقد ترجع إلى أمور شخصية أو تطلعات معينة دنيئة، وإن غُلفت بالغيرة على الدين وإرادة إظهار الحق، والواقع خلاف ذلك.

ومن هذه صفته فهو ومن نحى نحوه المعنى بقول ﷺ: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة وعبد القطيفة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط. تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»[٢].

فهو عبد لهذه الأشياء لأن عمله من أجلها، لها يرضى ويسخط، ولهذا قال ﷺ: «**إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط**». وهذا يدل على أن صاحب الهوى يعبد هواه كما قال – تعالى -: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ**﴾ [**الجاثية: ٢٣**].

---

(1) المجموع ٢٠/١٦٤.

(2) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله.

وفي حديث أبي هريرة الذي في الصحيح في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: «**الأول من تعلم علمًا ليقال: هو عالم قارئ، والآخر من قاتل ليقال: هو جريء شجاع، والثالث: من تصدق ليقال: هو جواد كريم**»[١]. فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم وطلب الجاه عندهم وتعظيمهم لهم، لم يقصدوا بفعلهم وجه الله وإن كانت صور أعمالهم حسنة في الظاهر.

وفي الحديث الآخر: «**من طلب العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فله من عمله النار**»[٢].

فمباهاة العلماء أن يظهر لهم أنه يعرف ما يعرفون، ويدرك ما لا يدركون من المعاني والاستنباطات، وأنه يستطيع أن يرد عليهم، ويبين أنهم يخطئون.

وأما مماراة السفهاء، فهو مجادلتهم ومجاراتهم في السفه.

وأما صرف وجوه الناس إليه، فالمراد به طلب ثنائهم ومدحهم له، وتعريفهم بأنه عالم، فهو بعمله هذا يتقرب إلى النار.

وفي الحديث الآخر: «**من طلب علمًا مما يبتغى به وجه الله – تعالى – لا يطلبه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة** [٣]**، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة**»[٤].

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة؛ ورواه الترمذي في أبواب الزهد؛ ورواه أحمد ٢/٣٢١.

(2) رواه الترمذي في أبواب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا؛ ورواه ابن ماجه في المقدمة وصححه الألباني؛ ورواه الدارمي في المقدمة، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله ١/١٠٢.

(3) رواه أبو داود في كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله؛ ورواه ابن ماجه في المقدمة وصححه الألباني؛ ورواه أحمد ٢/٣٣٨؛ والدارمي في المقدمة ١/٨٠.

(4) هذه الزيادة في موطأ مالك في كتاب اللباس، باب ما يكره للنساء لبسه.

قال أبو عثمان النيسابوري: «من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة»؛ لأن الله يقول: **﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]**[1].

فاتباع الهوى نوع من الشرك كما قال بعض السلف: «شر إله عبد في الأرض الهوى»! فهو يضل الإنسان عن الحق وإن كان يعرف ذلك، فإذا صار الهوى هو القائد والدافع صار أصحابه شيعًا يتعصب كل واحد لرأيه ويعادي من خالفه، ولو كان الحق معه واضحًا لأن الحق ليس مطلوبه!! وبذلك يذلوا وتذهب ريحهم، ويفشلوا أمام كل عمل أرادوه؛ لأنهم صاروا متفرقين تتحكم فيهم الأهواء، ولذلك تجد هؤلاء كلما علم أحدهم أن من يخالفه قد تكلم في مسألة أو موضوع تجده يبادر إلى الرد عليه بدون تأمل في قوله وتلمس لوجه الصواب، بل يعمى عن هذا المقصد، ويبذل جهده في تضليل مخالفه، وتفنيد رأيه بكل ما يستطيع، ولو برأي تافه، وتعسف بغيض. مع أن الذي يوجبه الإسلام هو محادثة المخالف والاطلاع على دلائله، ووزنها بميزان الكتاب والسنة. ثم يكون ذلك هو المنهي للنزاع، كما قال – تعالى -: **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [النساء: ٦٥].

فنفى الإيمان عمن لم يحكم الكتاب والسنة فيما يختلف فيه هو وغيره، ثم يسلم لحكمهما وينقاد له بدون تبرم أو ضيق صدر بذلك. بل لا بد من الرضا به والتسليم له مطلقًا وإلا لا يكون مؤمنًا.

---

(1) انظر: كتاب الاعتصام، للشاطبي، ص٧٢، ط. دار الكتب العلمية.

وقال – تعالى -: **﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** [النساء: **٥٩**]. فأوجب رد كل ما حصل فيه نزاع إلى الله والرسول لأن قوله: **﴿فِي شَيْءٍ﴾** نكرة تعم كل ما أحدث نزاعًا وإن قل، وبين أن الرد إليهما هو مقتضى الإيمان، فإذا لم يرد التراع إلى الله والرسول فمفهوم ذلك انتفاء الإيمان عمن فعل ذلك. وهذا المفهوم قد صرح به منطوقًا في الآية السابقة [(١)].

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه.. والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته. وذلك بإجماع العلماء.

وقال – تعالى -: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النور: **٦٣**]؛ أي فليحذر من لم يتبع الرسول في أقواله وأعماله ظاهرًا وباطنًا أن يطبع الله على قلبه ويزين له سوء عمله، فيراه حسنًا فيزداد شرًا على شر أو يصيبه الله بعقاب عاجل مؤلم لا يتخلص منه مع ما أعد له في الآخرة من النكال والإهانة.

قال ابن كثير[(٢)]: «أي فليحذر وليخشى من خالف شريعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا **﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾**؛ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة. **﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**؛ أي في الدنيا بقتل أو حدٍّ أو حبس أو نحو ذلك. ثم ذكر الحديث الذي في الصحيحين: قال رسول الله ﷺ: «**إنما مثلي ومثل الناس كمثل**

---

(1) من سورة النساء، رقم (٦٥)، وهي: **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾**.
(2) في تفسيره سورة النور تحت الآية (٦٣).

رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب يقعن فيها، فجعل الرجل يزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»(١).

ووجه ذكر هذا الحديث تفسيرًا لهذه الآية ظاهر، وهو أن من خالف أمر رسول الله ﷺ يلقي بنفسه في النار. فليحذر الإنسان أن يزين له الشيطان أو هواه اتباع من خالف الشرع محسنًا ظنه به فيعض على يديه يوم يُحصل ما في الصدور.

وكل هذا.. المقصود منه حسم التراع وإنهاؤه، ليحصل الوئام والاتفاق. فإن هذا من أعظم مقاصد الشريعة الإسلامية. وقد قال الله – تعالى -: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ١٠٢]. وقال – تعالى -: **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [آل عمران: ١٠٧]. وقال – تعالى -: **﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾** [الأنفال: ١]. وقال – تعالى -: **﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾** [الروم: ٣١، ٣٢]. وقال – تعالى -: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾** [الأنعام: ١٥٩].

أمر الله عباده المؤمنين بأن يتقوه بفعل ما أمرهم به من الاجتماع على دينه متحابين متعاونين على الخير، وأن لا يموتوا إلا وهم مستسلمين لأمره منقادين لطاعته مبتعدين عن معصيته. فإن

(1) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي؛ ومسلم في كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته.

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. وأمرهم أن يعتصموا بدينه عن التنازع والاختلاف والتفرق الذي يدعو إلى التعادي والتقاطع ثم الفشل والضعف وتسلط الأعداء! وأن يشكروا الله على ما من به عليهم من نعمة الاجتماع على دينه أخوةً متحابين، وأمرهم أن يكونوا دعاة إلى الخير والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. ثم نهاهم عن التفرق بعدما أعلمهم ضرره وما يترتب عليه من العداء والتباغض، ثم التدابر والتقاتل، كما حدث لمن قبلنا الذين يجب أن نعتبر بهم لئلا يصيبنا ما أصابهم، فمن فعل ذلك سوف يسود وجهه عند ملاقاة ربه وتيقنه بالجزاء العادل، وذلك يوم تبيض وجوه أهل الحق والوفاق الذين اعتصموا بكتاب الله عن التفرق والاختلاف، فعرفوا الحق واجتمعوا عليه، وعرفوا قبح الباطل وسوء عاقبة أهله فابتعدوا عنه، وكل هذا يدل صراحة على وجوب الاجتماع والائتلاف. ويحرم التفرق والاختلاف بجميع صوره. فمن أوجد ثغرة يخرج منها عن هذا الاجتماع يكون محاربًا لله ورسوله ﷺ مفارقًا لأمره، وهذا شأن أهل الضلال والأهواء.

أما أهل العلم فإنهم يختلفون في بعض مسائل العلم وهم متحابون مجتمعون على الحق، معتصمون بحبل الله، كما كان صحابة رسول الله ﷺ يختلفون في بعض أحكام الشرع ولا يدعوهم ذلك إلى التفرق. وأن يكونوا شيعًا كل فريق يعادي الآخر، كما يحصل اليوم لكثير ممن يزعم أنه من أهل العلم، وذلك لأنهم اعتصموا بحبل الله جميعًا كما أمر الله – تعالى -، وإنما كان اختلافهم في الاستنباط وإعمال الفكر في نصوص الشرع وكلياته

فيما لم يجدوا فيه نصًا. فحمدوا وأجروا على ذلك. مثل اختلافهم في إرث الجد مع الإخوة، وفي جواز بيع أمهات الأولاد، وفي المشركة، وفي الطلاق قبل النكاح، وفي مسائل في البيوع. وغير ذلك كثير كل واحد يخالف الآخر، ومع ذلك كانوا متوادين متناصحين، رابطة الأخوة الإسلامية قوية بينهم.

قال الشاطبي: «كل مسألة حدثت في الإسلام فاختلف الناس فيها و لم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاء، ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام، وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنابز والتنافر والقطيعة علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء، وأنها التي عني رسول الله ﷺ بتفسير الآية، وهي قوله – تعالى -: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]**. فيجب على كل ذي دين وعقل أن يجتنبها، ودليل ذلك قوله – تعالى -: **﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]**. فإذا اختلفوا وتقاطعوا كان ذلك لحدث أحدثوه من اتباع الهوى، فالإسلام يدعو إلى الألفة والتحاب والتراحم والتعاطف، فكل رأي أدى إلى خلاف ذلك فخارج عن الدين». اهـ [(١)].

والتفسير الذي أشار إليه أن الرسول ﷺ فسر به قوله –تعالى-: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]**، هو ما ذكره عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله و: «يا

(1) كتاب الموافقات ١٨٦/٤؛ وفي الاعتصام ص٤٢٩.

عائشة، إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، هم أصحاب الأهواء، وأصحاب البدع، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة! يا عائشة، إن لكل ذنب توبة ما خلا أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة! وأنا بريء منهم وهم مني براء!!»[١][٢].

وقال الشاطبي – أيضًا -: «ينبغي أن تذكر أوصاف أهل البدع ولا يعينون بأعيانهم لئلا يكون ذلك داع إلى الفرقة والوحشة وعدم الألفة التي أمر الله بها ورسوله، حيث قال – تعالى -: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾** [**آل عمران: ١٠٣**]. وقال –تعالى-: **﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾** [**الأنفال: ١**]. وقال –تعالى-: **﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾** [**الروم: ٣١، ٣٢**].

وفي الحديث: «لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانًا»[٣]، وأمر عليه الصلاة والسلام بإصلاح ذات البين. وأخبر أن فساد ذات البين هي الحالقة، وأنها تحلق الدين [٤]، والشريعة طافحة بهذا المعنى». اهـ [٥]. يعني: أن من قواعد الشرع ومن مقتضيات الإيمان والاعتصام بكتاب الله: الوحدة على الحق والاتفاق عليه، وأن ترك الاهتداء بهذا الدين يورث الاختلاف

---

(1) رواه الحكيم الترمذي وابن مردويه والطبراني وابن أبي الشيخ، ولكن لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، وفي سنده عباد بن كثير: متروك.

(2) ذكره الشاطبي في الاعتصام، ص٤٥.

(3) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر؛ ورواه مسلم.

(4) رواه أبو داود كتاب الأدب، باب إصلاح ذات البين وصححه الألباني.

(5) من كتاب الاعتصام، ص٤٢٣ وما قبلها في كتاب البر والصلة، باب تحريم التحاسد.

والشقاق، كما قال – تعالى -: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ...**﴾ [البقرة: ١٣٧]. فالله – تعالى – أوجب علينا أن نجعل اجتماعنا ووحدتنا بكتابه، فعليه نجتمع وبه نعتصم.. لا بأوضاع زائفة، ولا بمذاهب مخترعة، ولا بجنسيات يعتز بها، ولا بسياسات باطلة مبنية على غير الحق والهدى! ونهانا عن التفرق والتفكك والانفصام بعد هذا الاجتماع والاعتصام، لما في ذلك من زوال الوحدة التي هي مناط العزة والقوة، وبالعزة يعتز الحق فيعلو على الباطل، وبالقوة يحفظ هو وأهله من هجمات الأعداء ومكائدهم.

* وقد جاء النهي عن التفرق مصحوبًا بالوعيد الشديد لفظاعة أمره، وسوء عاقبته. كما قال – تعالى -: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [**آل عمران: ١٠٥، ١٠٦**]؛ لأن الاختلاف بعد مجيء البينات خروج على أمر الله الذي يجب أن يكون جامعًا للناس موحدًا لصفوفهم، فإذا فُهم قول الله واتبع وحسنت المقاصد صار عاصمًا من الاختلاف والتفرق، داع للاتفاق والاجتماع على طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ، وذلك يتضمن التعاون على البر والتقوى والتناصر على أعداء الله وأعداء المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للمسلمين عامة وخاصة، ولهذا جعل الرسول ﷺ هذا هو الدين كما في حديث تميم الداري، قال: «**الدين النصيحة**» قالها ثلاثًا – قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[1].

---

(1) رواه أحمد ١٠٢/٤، وأبو داود في كتاب الأدب، باب في النصيحة؛ ورواه البخاري ومسلم والنسائي.

ومما يؤسف له أن هذا الأمر المهم لهم يوله طلبة العلم في أيامنا هذه ما يستحقه من الاهتمام والاعتناء به، مع وجود كثير ممن نصب نفسه للتوجيه والتدريس يغلب عليه حب الظهور واتباع أهواء النفوس مع الجهل الكثير في المسائل العلمية المهمة، فصار من ثمار ذلك هذه الحالات التي يعيشها الشباب اليوم من التحزبات والاشتغال بالقيل والقال، وإطلاق الألسنة تلوك وتلفظ في أعراض الناس، ولا سيما المشايخ والدعاة إلى الله، بل توجه إليهم سهام النقد والتجريح بلا جرمية، بل جعلوا المحاسن مساوئ! وقد استمعت لكلام أحد هؤلاء نقل كلامًا لأحد الدعاة يُثني فيه على العلماء ويقول: «إنهم يقومون بأعمال كثيرة ويتحملون أعباء عظيمة، فيجب أن لا نحملهم ما لا يطيقون، ويجب علينا أن نساعدهم ونعاونهم ونكمل النقص الذي يحصل لهم»، ثم يجعل هذا الكلام مدخلاً للانتقاد ويقول: «هذا هو تنقص المشايخ والعلماء وعدم تقديرهم..» إلى آخر هذيانه الذي هو أشبه بهذيان المحموم: فما أدري ماذا يُريد هذا الناقد الغيور على المشايخ؟ هل يريد أن يجعلوا في عداد الرسل معصومين كما تقوله الرافضة، أو أنه لم يجد شيئًا يتعلق به إلا أن يلبس على الناس بأن هؤلاء الدعاة قد خرجوا عن الحق فصاروا يرمون أهله بالتنقص والازدراء؟!.

* أقول: من نتائج أفعال هؤلاء تبلبلت أفكار كثير من الشباب.

* فمنهم من ضل طريق الهدى، وصار يتبع ما يرسمه له هؤلاء النقدة الذين وقفوا في طريق الدعوة يصدون عن سبيل الله.

* ومنهم من صار لديه بسبب هؤلاء النقدة، فجوة عظيمة بينه وبين العلماء، ووحشة كبيرة فابتعد عنهم.

* ومنهم من جعل يصنف الناس حسب حصيلته مما يسمع من هؤلاء بأن فلانًا: من الإخوان؛ لأنه يكلم فلانًا من الإخوان أو يزوره أو يجلس معه... وأن فلانًا من السروريين... وفلانًا من النفعيين... وهكذا.

والعجب أنهم بهذا يزعمون أنهم يطبقون منهج الجرح والتعديل. وقد اتخذوا في هذا رؤساء جهالاً فضلوا وأضلوا.

فعلى المسلم أن يتقي الله في نفسه، وفي هؤلاء المساكين أرباع المتعلمين أو أعشارهم.

وفي الحديث الصحيح: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم**»(١)؛ يعني خير لك من الدنيا، فكذلك من ضل بسببه رجل واحد فعليه وزر عظيم. وقد قال الله – تعالى – بعدما ذكر قصة قتل ابن آدم لأخيه: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [المائدة: ٣٢].

وإضلال الإنسان في دينه أعظم من قتله بكثير، والكلام في مسائل الدين يجب أن يكون بدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن يقصد به وجه الله، وألا يكون ضرره أكبر من نفعه، وألا يكون الحامل عليه الحسد لمعين واتباع الهوى.

---

(1) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ والناس إلى الإسلام؛ ورواه أبو داود في كتاب العلم، باب نشر العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومعلوم أننا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة، مثل: الملوك المختلفين على الملك والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل، لا بجهل وظلم، فإن العدل واجب لكل أحد وعلى كل أحد، في كل حال، والظلم محرم مطلقًا لا يباح قط بحال. قال – تعالى -: **﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا﴾** [المائدة: ٨]. وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف في بغض مسلم بتأويل أو شبهة أو بهوى نفس؟! فهو أحق أن لا يظلم، بل يعدل عليه»(١).

وقال: «والعدل مما اتفق أهل الأرض على مدحه ومحبته، والثناء على أهله ومحبتهم. والظلم مما اتفقوا على بغضه وذمه وتقبيحه، وذم أهله وبغضهم، والعدل من المعروف الذي أمر الله به وهو الحكم بما أنزل الله على محمد ﷺ وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها، والحكم به واجب على النبي ﷺ وعلى من اتبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر.

وهذا واجب على الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتقادية أو العملية. قال – تعالى -: **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾** [البقرة: ٢١٣].

---

(1) منهاج السنة ٥/١٢٦.

وقال – تعالى -: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ [الشورى: ١٠].

«فالأمور المشتركة بين الأمة لا يحكم فيها إلا الكتاب والسنة ليس لأحد أن يلزم الناس بقول عالم ولا أمير ولا شيخ ولا ملك. ومن اعتقد أنه يحكم بين الناس بشيء من ذلك ولا يحكم بينهم بالكتاب والسنة، فهو كافر! وحكام المسلمين يحكمون في الأمور المعينة ولا يحكمون في الأمور الكلية، وإذا حكموا في المعينات فعليهم أن يحكموا بما في كتاب الله. فإن لم يكن فبسُّنة رسول الله، فإن لم يجدوا اجتهد الحاكم برأيه»[١].

«الله – تعالى – قد أمر المؤمنين كلهم أن يعتصموا بحبله جميعًا ولا يتفرقوا، وقد فسر حبله بكتابه، وبدينه، وبالإسلام، وبالإخلاص، وبأمره، وبطاعته، وبالجماعة، وهذه كلها منقولة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان. وكلها صحيحة، فإن القرآن الكريم يأمر بدين الإسلام، وذلك هو عهده وأمره وطاعته، والاعتصام به جميعًا إنما يكون في الجماعة، ودين الإسلام حقيقته الإخلاص لله. وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا[٢]، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»[٣].**

---

(1) تابع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، من كتاب منهاج السنة ١٣٢/٥ وما بعدها.

(2) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

(3) هذه الزيادة رواها مالك في الموطأ في كتاب الكلام؛ ورواها أحمد ٣٦٧/٢.

والله – تعالى – قد حرم ظلم المسلمين الأحياء منهم والأموات، وحرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وقد ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع**»[١].

وقد قال الله – تعالى -: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾ **[الأحزاب: ٥٨]**. فمن آذى مؤمنًا حيًا أو ميتًا بغير ذنب يوجب ذلك فقد دخل في هذه الآية.

ومن كان مجتهدًا لا إثم عليه، فإذا آذاه مؤذٍ فقد آذاه بغير ما اكتسب، ومن كان مذنبًا وقد تاب من ذنبه أو غفر له بسبب آخر بحيث لم يبق عليه عقوبة فآذاه مؤذٍ فقد آذاه بغير ما اكتسب وإن حصل له بفعله مصيبة.

وقال – تعالى -: ﴿**وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾ **[الحجرات: ١٢]**. وثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «**الغيبة ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»[٢].

---

(1) رواه البخاري في كتب متفرقة منها: كتاب الأضاحي باب (٥)، والفتن باب (٨)؛ ورواه مسلم في كتاب الحج (١٤٧)، والقسامة باب تغليظ تحريم الدواء والأعراض.

(2) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة.

فمن رمى أحدًا بما ليس فيه فقد بهته، ومن قال عن مجتهد: إنه تعمد الظلم وتعمد معصية الله ورسوله ومخالفة الكتاب والسنة، و لم يكن كذلك فقد بهته، وإن كان فيه ذلك فقد اغتابه، ولكن يباح من ذلك ما أباحه الله ورسوله، وهو ما يكون على وجه القصاص والعدل، وما يحتاج إليه لمصلحة الدين ونصيحة المسلمين.

فالأول: كقول المشتكي المظلوم: فلان ضربني، وأخذ مالي، ومنعني حقي، ونحو ذلك. قال – تعالى -: ﴿**لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ**﴾ [النساء: ١٤٨].

وأما الحاجة: فمثل استفتاء هند بنت عتبة. قالت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وبني ما يكفيني بالمعروف؟ فقال النبي ﷺ: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**» أخرجاه[1]. فلم ينكر عليها قولها ذلك، وهو من جنس قول المظلوم.

وأما النصيحة: فمثل قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس لما استشارته فيمن خطبها قالت: خطبني أبو جهم ومعاوية. فقال: «**أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**». وفي لفظ: «**يضرب النساء، ولكن انكحي أسامة**»[2]، فذكر ما تحتاج إليه. وكذلك من استشار رجلاً فيمن يعامله، والنصيحة مأمور بها، ولو لم يشاوره كما مر في حديث تميم[3].

---

(1) رواه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه؛ ورواه مسلم في كتاب الأقضية، باب قضية هند.

(2) رواه مسلم في كتاب الرضاع، باب المطلقة البائن لا نفقة لها.

(3) في قوله النبي ﷺ: «الدين النصيحة...».

وكذلك بيان أهل العلم لمن غلط في رواية عن النبي ﷺ، أو تعمد الكذب عليه، أو على من ينقل عنه العلم.

وكذلك بيان غلط من غلط في رأي رآه في أمر الدين من المسائل العلمية والعملية.

فهذا إذا تكلم فيه الإنسان بعلم وعدل وقصد النصيحة، فالله — تعالى — يثيبه على ذلك، لا سيما إذا كان المتكلم فيه داعيًا إلى بدعة فهذا يجب بيان أمره للناس، فإن دفع شره عنهم أعظم من دفع شر قاطع الطريق.

أما إذا تشاجر مسلمان في قضية ومضت ولا تعلق للناس بها ولا يعرفون حقيقتها كان كلامهم فيها كلامًا بلا علم ولا عدل يتضمن أذاهما بغير حق، ولو عرفوا أنهما مذنبان أو مخطئان فذكر ذلك من غير مصلحة راجحة من باب الغيبة المذمومة.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «**من حمى مؤمنًا من منافق حمى الله لحمه من نار جهنم يوم القيامة**»(١). وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»(٢). وفيهما عنه ﷺ أنه قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»(٣).

وقال — تعالى -: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ**

(1) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب الرجل يذب عن عرض أخيه، وصححه الألباني.

(2) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن أن يحبط عمله؛ ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب سباب المسلم فسوق وقتاله كفر.

(3) في البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإيمان.

عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

فنهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، واللمز: هو العيب والطعن.

وقوله – تعالى -: **﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾**؛ أي لا يلمز بعضكم بعضًا. وعلى المسلم أولاً أن يكون أمره لله، وقصده طاعة الله فيما يقوله ويفعله، وألا يكون بقوله وفعله طالبًا الرئاسة لنفسه أو لطائفته، أو تنقص غيره وحسده. وأن يفعل ذلك لطلب السمعة والرياء، فإنه بذلك يحبط عمله، وإذا كان عمله صالحًا وخاليًا من الشوائب المفسدة في المبدأ. ولكن لما رد عليه قوله أو أذى من أجل ما هو لله – تعالى – فنسب إلى الخطأ والغرض الفاسد عند ذلك طلب الانتصار لنفسه، وأتاه الشيطان وزين له ذلك فيكون مبدأ عمله لله ثم صار له هوى يطلب به أن ينتصر على من آذاه، وربما اعتدى على ذلك المؤذي.

وهكذا يقع لأصحاب الاختلافات إذا كان كل واحد منهم يعتقد أن الحق معه، وأنه على السنة، فيقعوا في الهوى وطلب الانتصار لجاههم ورئاستهم وما نسب إليهم، لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، بل يغضبون على من خالفهم، وإن كان مجتهدًا معذورًا، لا يغضبون عليه لله، ويرضون عمن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيئ القصد ليس له علم ولا حسن

قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، فتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم، لا على دين الله ورسوله، فيتشبهون بالكفار الذين لا يطلبون إلا أهواءهم فتنشأ الفتن بين الناس.

وأصل الدين أن يكون الحب لله والبغض لله، والموالاة فيه والمعاداة فيه، والعبادة كلها له، والاستعانة به، والخوف منه والرجاء له والعطاء والمنع له، وهذا لا يكون إلا بمتابعة رسول الله ﷺ الذي أمره أمر الله، ونهيه نهي الله، وطاعته طاعة الله، ومعاداته معاداة لله، ومعصيته معصية لله – تعالى -.

وصاحب الهوى يعميه هواه ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله، ولا يطلب ذلك. فلا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يهواه ويريده، ويغضب إذا خولف هواه، ويكون مع ذلك عنده شبهة دين وعلم، أو أنه يعمل على اتباع السنة ونصرة الدين والواقع خلاف ذلك.

ولو قدر أن الذي معه هو الحق المحض ولكن قصده الانتصار لنفسه ولغرضه، ولم يقصد أن يكون الدين كله لله وكلمة الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه ولطائفته، أو قصده الرياء ليعظم ويثني عليه، أو فعل ذلك شجاعة وطبعًا، أو لغرض من أمور الدنيا لم يكن لله ولا في سبيله، فكيف إذا كان مثل غيره معه حق وباطل، وسنة وبدعة ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة، فهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

والاختلاف إذا كان في ملة واحدة فكله مذموم؛ لأنه يؤدي إلى التنازع والتفرق، والدين يأمر بالاجتماع والائتلاف.

قال – تعالى -: **﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾** [البقرة: ١٧٦]. وقال: **﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾** [يونس: ١٩]، فذمهم على الاختلاف. وأما إذا كان الاختلاف بين أهل الإيمان والكفر كقوله – تعالى -: **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾** [البقرة: ٢٥٣]، فهذا مطلوب لأن فيه تمييز الحق من الباطل، ومزاولة الباطل والبعد عنه.

وإذا حصل خلاف بين أهل الدين يجب أن يقصد به طاعة الله وتنقية الحق من الباطل في نفوس الناس... رحمة بهم وإحسانًا إليهم، وطلبًا لرضا الله – تعالى -، حتى إذا رد على أهل البدع الظاهرة مثل الرافضة وغيرهم يجب أن يقصد بذلك بيان الحق وهداية الخلق، ورحمتهم والإحسان إليهم، وإذا غلط في بيان بدعة أو ذمها أو معصية يجب أن يكون قصده بيان ما فيها من الفساد ليحذرها العباد، وقد يهجر الرجل عقوبة وتعزيرًا والقصد ردعه وردع أمثاله للرحمة والإحسان لا للتشفي والانتقام.

والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين